أدب النفس

للإمام أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى

« رب يسر وأعن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »

قال الشيخ الإمام العارف ، أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى رحمه الله تعالى :

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار قدرته ، وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مردداً على القلوب ، وعلى ألسنة الخلق والخليقة ، لما علم فى غيبه ، فأنبأنا فى تنزيله ، فقال جل ذكره : ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] .

فأعلمنا لما خلق ، فقال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] . فقال أهل اللغة : إلا ليوحدون ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[3] يعني نُوَحِّد ؛ لأن فى

(١) سورة الجاثية ، معظم الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية رقم ٥٦ .

(٣) سورة الفاتحة ، جزء من الآية رقم ٥ .

توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو ، إقرار له بالملك والقدرة[1] وإضافة الأشياء إليه ، فهذه الكلمة تنتظم المدح .

وأباح ذكره على كل حال ، تقديمًا له على سائر الحالات ، وأعمال البر ، وحصر ما سواه من الأفعال فى أوقات مخصوصة ، مع ما ذكر فى الكتاب ، وجرت به الأخبار عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم بتفضيل الذِّكر على سائر الطاعات ؛ لأن فى الذكر مدحه .

وجاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما أحد أحب إليه العُذْرُ من الله تعالى ، ولا أحد أحب إليهَ المدح من الله تعالى جده** » حدثنا بذلك الجارود قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغْيَرَ من الله عز وجل ، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش** » .

---

(١) وإياك نعبد ، أى نقر لك بالعبودية وحدك لا شريك لك .

وندب العباد فى غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره[1] ، ويذكروا عنه جميل صنائعه ، فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2] فى كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن ، وفى كل اسم له مدحه ، وجميل ذكره .

ودعاهم إلى توحيده ، فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[4] أى وحدون .

لأنك لا تكون له عبدًا حتى يكون لك ربًّا ، لا شريك له ، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد ، فهو وإن كان

---

(١) الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يستطيع الإنسان أن يحفظ ما يعنيه من المعرفة وهو كالحفظ ، إلا أن الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه ، والذكر يقال اعتبارًا باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء ، القلب أو القول « الفيروز ابادى ، و بصائر ذوى التمييز جـ٣ ص٩ » .

(٢) سورة الأعراف ، جزء من الآية ١٨٠ .

(٣) سورة النحل ، جزء من الآية رقم ٥١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢٥ .

له عَبْدًا من طريق الملك ، فالعبد بنفسه لم يُصَيِّر نفسه عبدًا ، فيكون قد وَحَّدَه وعبده ، وإنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع ، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى ، فمن أطاع بأمر الله فهو مطيع لله .

ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوحدوه قلبًا وقولًا وفعلًا . فمن قبل ذلك منه جُمْلَةً ، فاستقرت المعرفة بأنه واحد ، فاطمأن به قلبه ، وترجم به لسانه عما فى ضميره ، وعزم على الفعل مائلًا له ، فقد آمن به ، وهذا كله من العبد فى وقت واحد ، فركّب فيه الشهوات والهوى ، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم[1] ، ويغوصون غوص النون فى البحر[2] .

وجعل القلب ملكًا على الجوارح ، فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وتزعج القلب ، والشيطان يمنيه ويزين له ويعده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه .

---

(١) يؤيد هذا حديث : « **إن الشيطان ليجرى من أحدكم مجرى الدم فى عروقه** » .

(٢) النون : الحوت .

فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين له العدو ، ومال به الهوى حتى يفعل الفعل الذى يخيل إليك فى الظاهر أنه لم يؤمن بعد ، فهو موحد بالقلب واللسان .

ولكن تغلبه الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوى ، ووسوسة هذا العدو والتزيُّن غلب على القلب ، لا على ما فى القلب ، مِمَّا فى القلب من المعرفة ، فالقلب به مطمئن ، ولكن صار مأسورًا مقهورًا ، وهو أبدًا لمن غلب عليه وقهره .

فخلق اللوح ، وجرى القلم بمقادير الخلق ، وخلق السمٰوات والأرض ، والظلمات والنور ، والليل والنهار ، والملائكة ، والجنة والنار ، والجن والشياطين ، والجبال ، والبحار ، والدواب ، والأقوات ، والمعايش ، وسائر الخليقة .

ثم خلق آدم عليه السلام ، فاصطفاه ، وجعله بديع فطرته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء ، وأبان فضله ، وكرَّم بنيه ، وحملهم فى البر والبحر ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلًا ، وسخر له ولذريته ما فى السمٰوات والأرض ،

واستخرج ذريته من ظهره ، وأخذ عليهم الميثاق[1] ثم ردهم إلى صلبه ، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى دار الدنيا ليعبدوه ، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق ، بألا يشركوا به شيئًا ، إلى آجالهم التى كتبها فى المقادير ، إلى أن تنقضى مدة الدنيا ، فيبعثهم للجزاء ، وتُبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وليجزى كل نفس بما كسبت ؛ ليكونوا فريقين : فريقًا فى الجنة ، وفريقًا فى السعير .

فمن نَوَّرَ الله قلبه بالإيمان قويت معرفته ، واستنارت بنور اليقين ، فاستقام به قلبه ، واطمأنت به نفسه ، وسكنت ووثقت ، وأيقنت ، وَائْتَمَنته على نفسها ، فرضيت لها به وكيلًا ، وتركت التدبير عليه .

فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش لم يضطرب قلبه و لم يتحير ؛ لأنه قد عرف ربه أنه قريب ، وأنه لا يغفل ولا ينسى ، وأنه رءوف رحيم ، وأنه رب غفور رحيم ، وأنه عدل

---

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين** ﴾ [الأعراف . الآية ١٧٢] .

لا يجور ، وأنه عزيز لا تمنع منه الأشياء ، وأنه يُجِيرُ ولا يُجار عليه .

فكما خلقه محتاجًا مضطرًّا ، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى ، لا من حيث يريد العبد ، على الهيئة التى يريد الرب ، لا على الهيئة التى يريد العبد ، وبمقدار ما يريد الرب ، لا بمقدار ما يريد العبد ، وفى الوقت الذى يريد الرَّب ، لا فى الوقت الذى يريد العبد[1] .

فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا ، إيمانًا به ، وقبولًا له ، ولم يستقر ذلك الإيمان فى قلوبهم ، حتى إذا كان وقت الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت ، واشتغلت عن خالق الأشياء ، ومالك الملوك ، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان فى قلوبهم سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقربه منهم ، وقدرته عليهم .

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قال الله عز وجل : عبدى أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلَّا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك فيما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد،ولا يكون إلا ما أريد** » .

فهذا شأن الرزق والمعاش . وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه ، واتخذوه وكيلًا ؛ لأنهم عرفوا[1] بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم ، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم ؛ لأنه خلقهم فصورهم ، وركبهم وأحسن تقويمهم ، وسوى تعديلهم ، فلم يكن لهم أنفسهم من العلم والتدبير ما دبر لهم ، وعرفوه ملكًا قادرًا قاهرًا ، يفعل ما يشاء ، وقد سبق علمه فيهم ، مما يكون فيهم ولهم وعليهم ، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه فى اللوح المحفوظ ؛ ليكون أوكد فى قلوب العباد ؛ لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدرى كنهه ، واللوح قد خط بالقلم ، فيه أمر محدود ، وشخص مخلوق ، ويدرك بالقلوب معاينة .

فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعاينه القلوب ، ولا يمكن توهمه ، فخلق اللوح ، وأثبت مقاديرهم فيه ، لا لحاجة به إلى ذلك ، وليكون أثبت على القلوب ، لتسكن النفوس ، وتستقر على ما جرى القلم به .

فإذا سكنت النفوس تفرغت القلوب لعبادته ، وحفظ حدوده ، وإقامة أموره ، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب

(١) فى المخطوط : لمّا عرفوا .

فيما يراد بها ، وما يكون وما يحدث ؛ لأنها قد أيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم ، وعند الإياس تسكن النفوس ، وإنما دعانا إلى أن نعبده ونقيم حدوده ، ونقيم فرائضه ، ونتجنب مساخطه ، ولنا قلب واحد ، فأثبت فى اللوح أرزاقنا وسعينا ، وآثارنا ، وأحداثنا ، ومدة آجالنا ، وعامة أمورنا ؛ لتطمئن النفوس ، وتخلص القلوب من وساوسها ، فتعبده بفراغ ، وكل ذلك منه رحمة علينا ، وبين ذلك فى تنزيله ، فقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[1] أى من قبل أن تُخْلق تلك المصيبة .

ثم بين لما فعل ذلك ، فقال : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[2] ،فإن التأسى على الشىء الذى لم يقدر لك فى اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك ، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المُعْطى ، حتى تأشر وتبطر بما تعطى ، فتهلك .

---

(١) سورة الحديد – جزء من الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الحديد – جزء من الآية ٢٣ .

وإنما المُبْتَغى منك فى ذلك أن تلهو عن الغائب ، وتفرح فى الموجود الذى أتاك بالأهل الذى أتاك ، ثم بفضله ورحمته عليك ، وإلى هذا ندبك فقال : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ۚ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1] .

وقال تعالى فى شأن الرزق : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ۚ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2] . ثم قال تعالى :﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3] . أى من يأكل تلك الحبة ومن يُرْزَقها .

فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين ، وغلبة الهوى ، وحرارة الشهوات ، خاطب نفسه فقال : يأيتها

---

(١) سورة يونس – الآية رقم ٥٨ .

(٢) سورة هود – الآية رقم ٦ .

(٣) سورة الأنعام – الآية رقم ٥٩ .

النفس لِمَ تضطربين ؟ قالت : لأنى محتاجة ، وخُلِقْتُ مضطرة ، ذات شهوات ، لا أبصر أمكنة الأشياء ، ولا أعرف أوقاتها ، ولا أعلم مقدارها ، واشتبهَتْ علىَّ كيفية أسباب وصولها إلىَّ . فقال لها : أيتها النفس إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتَكَفُّله أثبت عندكِ وأوكد وأقوى من الذى تُبْصِرِينَهُ على المشاهدة .

لأن البصر ربما أخطأ ، وربما كان مسحورًا ، يرى أنه كذلك ، وليس كذلك ، وقول رب العالمين أصدق وأبر ، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك .

فلو أبصرت الشىء الذى يحويه ملكك اطمأننتِ وسكنْتِ ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرأيتِ لو كان لكِ ديوان فيه غرماء مُمْلَاةٌ [1] أسماؤهم ، مكتوب فيه على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشرة آلاف درهم ، أكنت تطمئنين ؟

فإن وجدتها قد طابت وسكن اضطرابها ، لما وجدت فى الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فانشر

(١) فى المخطوط : ملاء . . والغرماء : الذين عليهم دَيْن .

عليها ديوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد ، المنسوخ فى اللوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمٰن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول رب العالمين ، فَقَلِّبْ أوراقه ، حتى تقف بها على آية الرزق ، حين يقول تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[1] .

ثم قل لها : أيتها النفس المطمئنة ، وجدْتِ فى ديوانك على هؤلاء الغاوين ما وجَدْتِ وفرحت ، وأمنت الفقر فطبت ، فهذا فى المصحف قوله : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] أهذا أعظم شأنًا ، وأصدق وأبر وأوفى ، أم الذى وجدتِ فى ديوانك ؟ أما تستحينَ أن تلقى ربك بهذه الحالة ؟

ولكنى قد فهمت لِمَ اضطربتِ ، بعد أن أيقنت بضمان ربك ، إنك ذات شهوات ، فيك شهوة العز ، فأنتِ تهربين من الذل ، وفيكِ شهوة ألوان الطعام ، فأنتِ تهربين من البؤس ، فيك شهوة إدارك المنى ، فأنت تهربين من فوتها ،

---

(١) سورة هود – جزء من الآية رقم ٦ .

(٢) سورة هود – من الآية رقم ٦ .

وإنما تضطربين لأنك أردتِ أن يكون رزقك فى وقت ، وأراد ربك فى وقت آخر ، واشتهيت أن يكون على صفة ، وأراد ربك غير ذلك ، وأردتِ من وجه راحةً ، وأراد ربك من وجه تتعبين فيه ، وأردت كثيرًا ، وأراد ربك أقل من ذلك .

فأصبحتِ وأمسيتِ مخالفة لربك فى مشيئاته وإراداته ، فحملك ذلك على الشهوة حتى غلبتك ، فرمتك فى أودية المهالك ، فأقبلت بهلعك وجزعك على حطام الدنيا ، من سبيل الخبائث والأقذار والشبهات والأوساخ ، لسكون نفسك به ، ثم منعتِ حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام .

فقطعت الأرحام ، وباغضت العباد ، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين ، وهربت من إنصافهم ، وجفوتِ أهل الحرمة ، فأصبحت وأمسيتِ ظلومًا غشومًا ، ووعيد الله ينادى فى سمعك قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۚ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنبياء – الآية رقم ٤٧ .

فهل تعرف مقدار الخردلة من الظلم ما هو ، وكيف يكون ؟ لو نجع[1] فيك هذا الوعيد لطارت منكِ الشهوات ، ومات منك الهوى .

فأهل الفهم راضوا أنفسهم ، وتدبروا فقالوا : كيف لنا بألا نأسى على ما يفوتنا من الدنيا ؟ وتمنوا إليه حاجة ، وطلبوا من أين يدخل الضرر عليهم .

فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج فى أنفسهم ، تحدثوا بها وتمنوها وطلبوها على التملك والاقتدار ، وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فلما فاتهم وجدوا الأسى والحزن ، على فوت ذلك ، فهموا أن هذا إنما دخل عليهم ، من أجل أنهم تمنوها وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فوجدت النفس حلاوة وجودها ، وقوى الهوى ، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات وقطع المنى ، فخمدت نيران شهواتهم ، ففارقوا الهوى جهدهم ، لمجاهدتهم إياه ، حتى ذلل وانقمع ، وكلما بدا لهم أمر أو خطر ببالهم لم يتمنوا ، ولا أطمعوا أنفسهم ، وانتظروا ما يبرز لهم من المسطور فى اللوح السابق ، قبل خلق السمٰوات ، وسلموا لربهم ، وانقادوا لحكمته كالعبيد .

(١) لو نجع فيك : أى أفاد ونفع . ويقال : ونجع فيه القول والخطاب والوعظ : عمل فيه ودخل وأثر [ابن منظور ، لسان العرب] .

فعاشوا فى الدنيا بأرفع درجة ، وأكرم منزلة ، عند أنفسهم ، وأنعم بال ، وأقر عين ، بهذا الدين ، وماتوا بروح وريحان ، ولقوا ربًّا غير غضبان ، رضوا عن مولاهم فرضى عنهم ، فأيدهم فى الدنيا بروح منه ، وفى الآخرة قرَّبهم ولطف بهم : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] . أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، استنارت قلوبهم باليقين ، فصارت فى نوائبهم كالمعاينة .

كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر ، أو خوف أو أمن ، أو ذل أو عز ، أو بلاء أو نعمة ، حرقت أبصار قلوبهم ، فأبصرت فى لحظة أن هذا الأمر قد كان فى اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن ، وهو حكم الله علينا ، لم يكن فيهم من الشهوات ، ولا من الهوى ، من القوة ما يثقل عليهم قبوله من ربهم ، وتلقوا أمره بالهشاشة[2] وتلاقت النفس وبشر

(١) سورة المجادلة – من الآية رقم ٢٢ .

(٢) الهشاشة : الارتياح والخفة للمعروف . وأهش هشاشة ، إذا خففت إليه وارتحت له وفرحت به « لسان العرب » .

الوجوه ، فهم الراضون ، والصابرون ، قبلوا على كره ، من نفوسهم وجهد ؛ لأن شهواتهم حية قوية فى نفوسهم ويقينهم ضعيف ، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك ، ، ورأفته ورحمته عليهم ، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة . فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس ، فتذهب بالمرارة ، كما تجد المرارات فى الأدوية ، فتمزج بالعسل والسكر ، وما أشبه ذلك ، فيغلب عليه ، فتفقد تلك المرارات منها .

وإنما تقع حلاوة صنع الصانع فى قلبك ، على قدر حبك للصانع ، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره ، وكلما كنت به أعلم ، وكان هو أرفع منزلة فى الأشياء ، كان قدره عندك أعظم ، فهو إليك أحب .

ولذلك قيل : أشدهم حبًّا له أعلمهم به ، وأعرفهم له ، ومنه قول بديل العقيلى : « من عرف رَبَّهُ أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها » . رواه ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، رحمهما الله تعالى ، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بُديل رحمه الله » .

فمن عجز عن الرياضة ، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته ، على حد الإيمان . وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه على ثقل من نفسه ، وتنغيص وتكدير من عيشه ، وجهد من قلبه ، ومن راضها وأدبها استقامت فى السير ، وانفطمت عن أخلاقها ، وتداركه ربه بالنصر والمدد ، وأنجز له الوعد .

فقد بين هذا الشأن فى آيتين من كتابه ، فقال : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1] فأمر بمجاهدة النفس وفطمها عن أخلاق السوء عن أن يريد غير ما يريد الرب جل وعلا ، ولو تركنا فى جميع أعمارنا لكان هذا أمرًا هائلًا عظيمًا . لكنه وعد فى آية أخرى أن يخلصنا من وباله ، ويؤدبنا ويبصرنا ، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2] . فهو هاديك ، وهو معك فى النصر والتأييد ، فرحمته منك قريبٌ مِمَّنْ يقويك ومن يدركك .

---

(١) سورة الحج – من الآية : ٧٨ .

(٢) سورة العنكبوت – الآية رقم : ٩٦ .

وإنما الشأن أن تجاهد فى بدء أمرك حق جهاده ، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثانى قد أنجزه لك ، فإذا هداك السبيل ملأ قلبك نورًا ، وكلاءة ورعاية ، حتى لا تزيغ ، فهو المنيب ، المقبل على ربه ، القابل لأمره بالهشاشة والسرعة .

ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام ، حكى عنهم الرب تبارك وتعالى ، حيث قالوا :﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾[1]

والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك ، ثم ترضى بما يصنع بك ، فعلموا فى قلوبهم أنهم إنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله . ومما يحقق ما قلنا فى شأن الراضى والصابر قول رسول الله ،صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما : « **فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر ، فإن الصبر على ما تكره خير كثير ، واعلم أن مع العسر يسرًا ومع الكرب فرجًا** » . حدثنا بذلك على بن حجَر قال : حدثنا بذلك

---

(١) سورة إبراهيم – من الآية رقم ١٢ .

إسماعيل بن عياش ، وعيسى بن يونس ، قالا حدثنا عمر مولى غفرة ، عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد بَيَّن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المنزلتين فى هذا الحديث .

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضى ، وأن الراضى باليقين أدرك ذلك ؛ لأنه عاين عواقب الأمور . وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم افتقده من حيث وضعه ، وهو لا يملك شيئًا سواه ، فثار فى رأسه كالثيران من شدة الوجد لفقده ، حتى تبين ذلك فى أحواله ، وفى وجهه ، وظهر اغتمامه بذلك ، فقال له رجل مليءٌ ، وفىٌّ بَرٌّ صدوق : أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم دينارًا ، فسكن إلى قوله ، وسكن بعض ما به من الوجد ، فلا يخلو من الاغتمام ، ويضيق صدره ، بمضى هذه المدة ، فهو يصبر على كره ، إلا أنه مازج بما أطمع فيه ، الوجد الذى فى نفسه فخف ما به ، وهو كاره صابر .

ورجل آخر افتقد كيسًا من دراهم ، وفى ملكه ملء بيوت من جواهر ، كل جوهر لا يدرى ما قيمته ، فما تبين عليه فَقْدُ ذلك الكيس ، ولا يبالى به . وهو فى ذلك كالذى افتقد

فَلْسًا وعند كيس من الدراهم . فالأول هو غنى بالمال ، والثانى غنى بربه ومليكه .

فالأول فرح بالمال والأحوال ، والثانى فرح بالله ، ثم بفضله ورحمته ، عامة ملجئه ومفزعه إلى الله عز وجل ، فالأول قلبه مأسور بالأشياء ، قد ملكته حلاوة الأشياء والثانى سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل ، فالأول قَلْبُهُ بالأشياء ، وبالأشياء تعلُّقه ، والثانى مشتغل بالله ، وإليه منيب ، وبه متعلق .

ومما يحقق عندنا حال هذا الثانى ، ما أتت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن السلف الصالح ، من بعده ، حدثونا به عن ابن المبارك ، عن صالح المرى ، عن حبيب بن محمد ، وهو العجمى رحمه الله ، عن شهر بن حَوْشَب ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، ولم يرفعه ، وأما غير ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام : يا جبريل انسخ من قلب العبد الحلاوة التى كان يجدها به ، فينسخها من قلبه ، فيصير العبد وَالِهًا** » . .

فإن اعترض فى هذا القول معترض بالإنكار ، وقال هذا غير موجود فى الأنبياء والرسل ، عليهم السلام ، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا يبكون فى المصائب ، ويحزنون عليها ، ويجدون ألم الأشياء المكروهة ، ويفرحون فى المحبوب .

فيقال له : يا عاجز ، وما يدريك من أى شيء بكت الرسل وحزنت ؟ وكيف كان فرحهم ؟ ومن أى شيء فرحوا ؟ فرب فرح محمود ، وعلى ذلك حب الله عباده ، ورب حزن ممدوحٌ أهلُه فى الدنيا والآخرة ، ونطق الكتاب بالثناء عليهم ، والبكاء على سبعة أنواع فما فوقها ، كل نوع منها من شيء غير الآخر ، فهل ميزت بين هذه الأشياء ؟ وهل أُطْلِعْتَ مَطْلَع هذه المنازل ، أم أنت رجل اتبعت شيئًا من هذا العلم تفخر به ، وترأست به فأنت تريد أن تطفئ نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون[1] .

فأما فرح المتقين فبفضل الله ، ورحمته ، وعلى ذلك دل عباده ، وأما فرح الأنبياء والصديقين فيه ، تبارك اسمه ،

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [سورة التوبة – الآية رقم ٣٣] . وقوله تعالى : ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ [سورة التوبة الآية رقم ٣٢] .

ولذلك روى لنا عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : قرأت فى بعض الكتب : « يا معشر الصِّدِّيقين تنعموا بذكرى ، فإن ذكرى لكم فى الدنيا نعمي ، وفى الآخِرَةِ جزاء » .

وقال فى حديث آخر : « آثرتمونى على شهواتكم ، ورضيتم بى بدلًا من خلقى ، فبى فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا ، فوعزتى ما خلقت الجنان إلا من أجلكم » . وحدثنا عبد الرحيم بن حبيب الفاريانى ، فى حديث له ذكره عن حبيب العجمى ، رحمه الله ، أنه كان يقول (ما) تفسيره : « يارب فرحت حتى كدت أموت من الفرح ، كونك لى ربًّا[1] وأنا عبدك : « خدايا عجب است ممكن إزشادى بميرم كف مراجو تؤاخذنى » .

وأما بكاؤهم ، فكانت الأنبياء عليهم السلام ، أرحم البرية ، فكلما ازداد العبد من الله تعالى قُرْبة ، كانت له من الرحمة أكثر ، وكذلك روى لنا عن ابن المبارك ، عن عبيد بن عمير ، قال : « ما ازداد العبد من الله تعالى قُربة ، إلا كان له من الرحمة ما ليس لغيره » . حدثنا بذلك الجارود بن معاذ

(١) فى المخطوط : « مثلك لى رب » .

رحمه الله ، عن على وعمير بن عبد الله ، فكانوا فى المصائب يرحمون ، فيبكون ما يرون . وكانوا أعلم الناس بالموت ، وكنه مرارته ، وعِظَمِ شأنه ، وخَطَر المَقْدَم على الله عز وجل . فكانت قلوبهم ترق لما يرون .

ألا ترى أنه قال فى حديث إبراهيم ابنه : « **إنما هذه رحمة ، ومن لا يَرْحم لا يُرحم** » . فكان يبكى وبعد ذلك رحمة ، ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل .

ألا ترى أنه عاب من لا يرحم ، فكانت تلك منه رقة ومن هؤلاء القوم فتنة وصبابة . وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام ، أنه قال ليوسف عليه السلام : يا بنى إنما حزنت عليك مخافة . وأيضًا من طريق آخر ، قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق ، هيج منهم أشياء ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار .

وفى هذا كلام إلى غاية الطول ، قد بيناه فى كتاب « صفة القلوب وأحوالها وهيئة تركيبها »[1] وما يتردد فى النفس فى صدور القلوب .

---

(١) كتاب صفة القلوب منه مخطوطة بمكتبة قسطمونى رقم ٢٧١٣ ، ومكتبة